

## أحسن القصص في القرآن: مقارنة بالإسرائيليات

نور محمد عثمانى

تلخيص:

إن القرآن الكريم ذكر قصة يوسف عليه السلام في سورة بكاملها في حكاية متتابعة متتالية، وسماها الله عزّ وجل بأحسن القصص في القرآن. وكذلك وردت قصته بتفاصيلها وأجزائها في التوراة. ومما يدعيه المستشرقون أن مأخذ القرآن الكريم في قصصه هو التوراة والإنجيل. والقارئ لهذه السورة في القرآن وسفر التكوين من العهد القديم للكتاب المقدّس يرى فروقا جوهرية في كثير من الأمور، كما أنه يوجد التوافق في بعضها الآخر. ومن هنا فإننا سوف نتعرّى في هذا البحث التحليلي النقدي المقارن لبعض المناظر من حياة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام كما ذكر في القرآن الكريم وتفاسيره وكما ورد في التوراة، ليرى القارئ بنفسه ما هو البيان الذي يناسب منزلة سيدنا يوسف عليه السلام كنبىّ مرسل من عند الله عزّ وجل.

تقديم:

إن القصص تحتلّ جزءاً كبيراً من القرآن الكريم، وتمثّل لوناً من ألوان إعجازه في نظمه العجيب وأسلوبه الفريد، الذي يدل دلالة واضحة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من عند ربّه سبحانه وتعالى. وهي كذلك تمثّل واحدة من أبرز وسائل العرض الفنّي في القرآن الكريم. يقول فضل حسن عباس في كتابه قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية: "وكان نصيب القصة من حيث المكان والمساحة يساوي ربع القرآن أو يزيد قليلاً"<sup>(١)</sup>. وهذا يعني أن قرابة ثمانية أجزاء من القرآن الكريم تحتوي على قصص الأمم السابقين.

١- فضل حسن عباس: قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، دار البشر، عمان، ص ٦٠.

إن قصة يوسف عليه السلام لها مكانة خاصة ومتميزة عن سائر قصص القرآن الكريم، إذ سماها الله عزّ وجل بأحسن القصص في القرآن: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (٢). فإنه أحسن القصص انتقاءً واختياراً، وإنه أحسن القصص نظماً وترتيباً، وإنه أحسن القصص شهادة صدق وبرهان حق، وإنه أحسن القصص حكماً وأحكاماً.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى قصة يوسف عليه السلام دفعة واحدة، ولم يكررها في أماكن أخرى من القرآن الكريم، فقد وردت في شكل حكاية متتالية مترابطة، تحتاج إلى أن تقدّم في الجلسة الواحدة، يقول سيد قطب رحمه الله: "بدأت القصة وانتهت في سورة واحدة، لأن طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء، فهي رؤيا تتحقق رويدا رويدا... فلا تتم العبرة بها، كما لا يتم التنسيق الفني فيها، إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها، وإفراد حلقة واحدة منها في موضع لا يحقق شيئاً من هذا كله كما يحققه أفراد مجموع الحلقات في قصص الرسل الآخرين(٣).

#### الإسرائيليات في تفسير القرآن الكريم:

الإسرائيليات: جمع إسرائيلية، نسبة إلى إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، والمراد بها: القصص والحوادث التي تروى عن المصادر الإسرائيلية، وهي التوراة وشروحها، والأنجيل وشروحها، والأسفار وما اشتملت عليه، والتلمود وشروحه، والأساطير والخرافات والأباطيل الواردة في كتبهم والتي افتروها، أو تناقلوها عن غيرهم؛ تلك هي المنابع الأصلية للإسرائيليات(٤). وتوسّع البعض في استعمال هذا المصطلح فاستخدموه في كل ما دسّه اليهود وغيرهم في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو في تفسير القرآن الكريم كقصة الغرائيق(٥).

٢- سورة يوسف، الآية: ٣.

٣- سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ١٩٧٩م: ٦٠/٥.

٤- محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٠م، ج ١، ص ١٦٥؛ محمد بن محمد أبو شهبه: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، مكتبة السنة، القاهرة، ١٤٠٨هـ، ط/٤، ص ١٢-١٣.

٥- سعد يوسف محمود أبو عزيز: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفاسير قديماً وحديثاً، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ص ٤٣.

أما هل يجوز لنا الأخذ بالإسرائيليات في تفسير القرآن الكريم وغيره، فقد نصّ العلماء على أن المسألة لا تخلو من إحدى ثلاث حالات على النحو الآتي:

١- أن توافق ما جاء في شريعتنا،

٢- أن تخالفه

٣- أن لا توافق ولا تخالفه.

فالنوع الأول مقبول، والنوع الثاني مردود، والنوع الثالث متوقف فيه، وهو ما لا نعلم صدقه ولا كذبه، ومن ثمّ اختلف العلماء في أنه هل يجوز لنا الأخذ بها أو لا يجوز(٦). وقد روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدّقونه والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني"(٧).

فالناظر في قصة يوسف - مثلاً - في القرآن الكريم والتوراة والتلمود يرى توافقاً وتعارضاً وزيادة وحذفاً، فلا عجب أن يوجد التوافق بين الكتابين المقدّسين في الأصل، فإنهما وردا من مصدر إلهي، مع ما ورد في التوراة من تحريف وتغيير. ويوجد التعارض بينهما في كثير من الأمور، وقد سكت القرآن عن أمور لا طائل وراءها، ولكنها ذكرت في التوراة أو التلمود. فيجب على القارئ المتفحص أن يميّز بين ما ورد في القرآن وما ورد في التوراة، وأن يعرف ما هو البيان الذي يناسب مقام الأنبياء مثل يعقوب ويوسف عليهما السلام، ويشهد له العقل السليم. وهذا ما سنحاول الاطلاع عليه وإظهاره في هذه الصفحات إن شاء الله بعون الله وتوفيقه.

سورة يوسف: زمن نزولها:

يروى أن هذه السورة نزلت في أواخر عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما كان المشركون يدبرون المكائد ويتآمرون على رسول الله هل يقتلونه أو يجلولونه أو يحبسونه. ومما روي في سبب نزولها أنه جاء بعض المشركين إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وسألوه - بإشارة من أهل الكتاب -

٦- أنظر للتفصيل، ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير، ص: ١٣-١٤.

٧- أنظر: الهيثمي، علي بن أبي بكر: مجمع الزوائد، دار الفكر، بيروت: ٤٦٩/٨، رقم: ١٣٩٦٣، والسيوطي، جلال الدين: جامع الأحاديث والمراسيل، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م: ١٧٣/٢، وأيضاً: ٢٨٥/١١، رقم: ٤٦٥٢.

عن سبب قدوم بني إسرائيل إلى مصر<sup>(٨)</sup>، فإن أهل مكة لم يكونوا يعرفون ذلك، ولا يوجد خبر عنه في آثارهم. فأنزل الله هذه السورة وبيّن فيها قصة يوسف عليه السلام بتمامها، مقررًا فيها أن المشركين لن يؤمنوا به وإن أتى بما يريدونه منه، وأجاب بما سألوه عنه، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ . وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾<sup>(٩)</sup>.

وأنزل الله هذه السورة لتكون آية وعظة وعبرة للسائلين من مشركي مكة، فكما أن إخوة يوسف حسدوه وكادوا له كيدا، إلا أن تدبير الله غلب كل تدبير وكل مؤامرة، فهم وإن أرادوا به شرًا و ألقوه في غيابت الجبّ فإن الله سبحانه وتعالى قد مهّد له الطريق ليكون حاكما على أرض مصر، حاكما مطاعا محببًا. ونفس الشأن حدث لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا كاد المشركون له كيدا لإجلائه أو قتله أو حبسه. فإن الله عز وجل كان يدبّر من فوق علياء سمائه أمر خير لحبيبه ومصطفاه، ومن أحسن من الله تدبيراً. وهكذا بعد أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة رجع إليها فاتحاً في بضع سنين، وقد خضع المشركون ونكسوا رؤوسهم منتظرين أمر رسول الله فيهم. فعاملهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلما عامل يوسف عليه السلام إخوته. ولذلك قال الله سبحانه تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ﴾<sup>(١٠)</sup>.

وفيما يلي نلقي الضوء على بعض الجوانب الهامة من حياته ليظهر لنا الفرق بين ما ورد في القرآن وفي الكتب المقدسة.

أولاً: رؤيا يوسف عليه السلام العجيبة:

تبدأ قصة يوسف عليه السلام بالرؤيا العجيبة التي رآها وأظهرها لأبيه، فعرف أبوه منها أنه سيكون له شأن عظيم وأن إخوته سيحسدونه لذلك ويكيدون له. وكان يعقوب عليه السلام يحبه حباً شديداً، بل ازداد حبه له بعد هذه الرؤيا العجيبة وزاد اهتمامه به والمحافظة عليه حتى لا يصيبه منهم أذى، وفي ذلك ذكر القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾<sup>(١١)</sup>.

٨- انظر القرطبي، أبو عبد الله: الجامع لأحكام القرآن، دار الشعب، القاهرة، ١٣٧٢هـ، ١٠٢/٩، سورة يوسف:

الآية ٢، وأيضاً: المودودي، أبو الأعلى: تفهيم القرآن، إداره ترجمان القرآن، باكستان، ١٩٩١م: ٣٧٨/٢.

٩- سورة يوسف، الآية: ١٠٣-١٠٤.

١٠- سورة يوسف، الآية: ٧.

١١- سورة يوسف، الآية: ٤.

ولهذا نصحه أبوه أن لا يظهر الرؤيا أمامهم، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾. هذا ما ورد في القرآن الكريم. أما في الروايات الإسرائيلية فنجد أن أباه يوبّخه ويزجره، فقد ورد فيها: "وقصّه على أبيه وعلى إخوته فانتهره أبوه و قال له ما هذا الحلم الذي حلمت؟ هل نأتني أنا و أمك و إخوتك لنسجد لك إلى الأرض؟! فحسده إخوته و أما أبوه فأسرّ هذا الكلام في قلبه" (١٢).

وهذا أمر غريب جدا، أن يستاء الأب من رؤيا ابنه ويوبّخه! فإن كانت وحيًا فكيف يتضايق منها؟ والحق أن ما قصّه القرآن الكريم في هذا الشأن هو أنسب لنبوّة يعقوب، وأليق بصفاته الفاضلة، والرواية الإسرائيلية ليست كذلك. ومن ناحية أخرى إن ما عرضه يوسف على أبيه لم يكن إلا مجرد الرؤيا التي رآها في منامه، ولم يعرب فيها عن إرادته و رغباته، وفي مثل هذه الحالة لا يتوقع من رجل عادي عاقل أن يستاء منها فضلا عن أن يكون ذلك من نبيّ من أنبياء الله! فأبي أب محبّ لابنه يستاء من سماع خبر يدل على مستقبل زاهر لابنه؟!!

#### ثانيا: المؤامرة الغاشمة ضد يوسف:

عقد الإخوة العشرة مؤتمرا سريا حاقدا غاضبا، ومجلسا خفيا حاسدا صاحبا، بدؤوا فيه حديثهم بتقرير حقيقة لمسوها جميعا؛ وهو أن أباهم يحب يوسف وأخاه بنيامين أكثر منهم، والحال أنهم عصبه من الرجال الأقوياء، وعندهم القدرة على خدمته، والدفاع عنه، دون يوسف وشقيقه، وأن أباهم بفعله هذا قد وقع في خطأ ظاهر، وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا كله بأروع البيان وأحسنه، فقال: ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١٣).

ثم شرعوا في التشاور وعرض الاقتراحات حول الطريقة التي يمكنهم التخلص بها من يوسف لإفساح المجال لهم للاستئثار بحب والدهم. وكان أول الاقتراح قد تضمّن ما يلي: ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ (١٤). ورغم هذه المحاولة لم يظفر هذا الرأي بإقناع الجميع، فقال الآخر: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقُوَّةَ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (١٥).

١٢- الكتاب المقدس، سفر التكوين، ٣٧: ١٠-١١.

١٣- سورة يوسف، الآية: ٨.

١٤- سورة يوسف، الآية: ٩.

١٥- سورة يوسف، الآية: ١٠.

وأما صاحب هذا القول، فقد اضطربت الرواية الإسرائيلية في تعيينه اضطراباً واضحاً، ففي سفر التكوين<sup>(١٦)</sup> نجد أن يهوذا هو صاحب هذا الاقتراح، ولكننا نرى في نفس السفر<sup>(١٧)</sup> أن راوبين هو صاحب الصوت الأعلى وأنه هو الذي اقترح إلقاء يوسف عليه السلام في الجب.

وأما في القرآن فإن هذا القائل هو أحد الإخوة، ولذلك وصف بأنه منهم، ولم يعين القرآن اسم هذا القائل - كعادة القرآن ألا يذكر إلا اسم المقصود من القصة دون أسماء الذين شملتهم مثل قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ... ﴾ (١٨).

وكانت النتيجة أن اتفقت الأصوات على هذا الرأي الأخير وهو إلقاؤه في الجب، ولكن كيف يذهبون به وأبوهم لا يصبر على فراقه ولو لمحة واحدة! فبدؤوا في تدبير الحيل و اتخذوا الوسائل لإغراء أبيهم، حيث: ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ . أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١٩).

فأرسله يعقوب عليه السلام معهم ولكن على تخوف وحذر شديد، وأوصاهم أن يقوموا برعايته وحفظه من الحيوانات المؤذية المفترسة كالذئب وغيره. فأعطوه العهد والميثاق بأنهم سوف يتولون حفظه ولو بتضحية أنفسهم لحفظ يوسف إن دعت الحاجة إلى التضحية. فذهبوا به وأجمعوا على أن يلقيه في غيابت الجب. ثم رجعوا عشاء إلى أبيهم بدم كذب على قميص يوسف عليه السلام. فقال يعقوب عليه السلام: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (٢٠).

١٦ - سفر التكوين، ٣٧: ٢٦-٢٨ (فقال يهوذا لإخوته ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفي دمه، تعالوا فنبيعه للإسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحمنا فسمع له إخوته، واجتاز رجال مديانيون تجار فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة فأتوا بيوسف إلى مصر).

١٧ - سفر التكوين، ٣٧: ٢١-٢٤ ( فسمع راوبين وأنقذه من أيديهم وقال لا نقتله، وقال لهم راوبين لا تسفكوا دما اطرحوه في هذه البئر التي في البرية ولا تمدوا إليه يدا لكي ينقذه من أيديهم ليرده إلى أبيه، فكان لما جاء يوسف إلى إخوته أنهم خلعوا عن يوسف قميصه القميص الملون الذي عليه، وأخذوه وطرحوه في البئر وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء ).

١٨ - سورة غافر، الآية: ٢٨.

١٩ - سورة يوسف، الآيتان: ١١-١٢.

٢٠ - سورة يوسف، الآية: ١٨.

هذا ما نجده في القرآن الكريم، أما الرواية الإسرائيلية فتخبرنا بأن يعقوب عليه السلام هو الذي أرسل يوسف عليه السلام على إثر أبنائه الكبار ليبحث عنهم وعن أغنامهم. إذ ورد في سفر التكوين: "ومضى إخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم. فقال إسرائيل ليوسف أليس إخوتك يرعون عند شكيم تعال فأرسلك إليهم فقال له ها أنذا. فقال له اذهب انظر سلامة إخوتك وسلامة الغنم و رد لي خبرا... فذهب يوسف وراء إخوته فوجدهم في دوثنان. فلما أبصروه من بعيد قبلما اقترب إليهم احتالوا له ليमितوه. فقال بعضهم لبعض هوذا هذا صاحب الأحلام قادم" (٢١).

وهل يعقل من يعقوب - بعد علمه بحسد الإخوة ليوسف - أن يرسل ابنه المحبب إلى ما فيه موته وهلاكه؟! ومن هنا ظهر لنا أن رواية القرآن الكريم أقوم وأصح.

أما موقف يعقوب عليه السلام بعد أن أتوا على قميصه بدم كذب، كما حكى لنا القرآن الكريم فقد كان موقف المؤمن الصابر، الموقف الرجولي الإيماني الرفيع اللائق بالنبى الكريم، على عكس ما ورد في الرواية الإسرائيلية: "فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحا على حقويه وناح على ابنه أياما كثيرة. فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه فأبى أن يتعزى وقال إني أنزل إلى ابني نائحا إلى الهاوية وبكى عليه أبوه" (٢٢).

إن مثل هذا الموقف لا يليق برجل عادي فكيف بنبي كريم؟! ثم إن ما قصه القرآن الكريم هو أليق بمكانة نبي يوحى إليه، فرجا أن الله سبحانه وتعالى سينجي ابنه ويحفظه ويتم عليه نعمه.

**ثالثا: انتشار يوسف من قعر الجب ومحنة الاسترقاق:**

وبعد أن ألقى إخوة يوسف به في الجب، وتركوه، وانصرفوا لشأنهم، جاءت إلى ذلك المكان قافلة من المسافرين (٢٣). فأرسلوا واردهم ليبحث لهم عن ماء ليشربوا منه، فوجد بثرا فأدلى دلوه، إذا بـغلام - في غاية الحسن الباهر وروعة الجمال النادر - يتشبث به للخروج، فلما رآه فرح به فرحا شديدا، وأتى به إلى رفقائه يعلن ابتهاجه وسروره فصاح مستبشرا: يا للخبر السار هذا غلام، ثم أخفوا خبر التقاطه، واعتبروه بضاعة خفية لهم، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا المشهد بقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا

٢١- سفر التكوين ٣٧: ١٢-١٩.

٢٢- سفر التكوين، ٣٧: ٣٤-٣٥.

٢٣- ولم يقل لنا القرآن الكريم من أين جاءت هذه القافلة، وهل كانت ذاهبة إلى مكان ما أو عائدة؛ لأن هذا لا يهم في سياق القصة، المهم أنهم وصلوا إلى مكان البئر التي فيها يوسف.

يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾. ثم ذهبوا به إلى سوق مصر لبييعوه، فباعوه بدرهم قليلة للتخلص منه خشية أن يدركهم أهله فينزعونه منهم، قال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ ﴿٢٥﴾. هكذا هبط الصديق مصر، كرقيق اشتراه عزيز مصر. وتلك صورة أخرى في القرآن الكريم وعبر بوضوح وجللاء.

#### التعارض الصريح في الروايات الإسرائيلية:

أما الروايات الإسرائيلية فتحكي لنا: أن إخوة يوسف هم الذين أخرجوه من البئر وباعوه للإسماعيليين<sup>(٢٦)</sup>، ثم جاء في نفس السفر ما يخالف هذا تماما حيث ذكر أن المديانيين هم الذين انتشلوا يوسف من البئر وباعوه للإسماعيليين<sup>(٢٧)</sup>. ثم ذكر أن المديانيين باعوا يوسف لفوطيفار خصي<sup>(٢٨)</sup>! ثم بعد تجاوز إصحاح واحد قال أن فوطيفار اشترى يوسف من يد الإسماعيليين!!؟<sup>(٢٩)</sup>. وهنا ينشأ سؤال وهو كيف دار في خلد كاتب التوراة أن رئيس الشرطة كان خصياً؟ أولم يكن شافعا له في دحض هذه الفرية بأنه تزوج أجمل سيّدة في البلاد. ومن العجب أن هذه الأكاذيب قد انتقلت إلى بعض كتب التفسير<sup>(٣٠)</sup>. مع أن الآية القرآنية تقرّر فائدة هي ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَدَلًّا﴾ أي أنه حُرْمٌ من نعمة الولد، ولا تفيد أنه كان عقيما، فضلا عن كونه خصياً، والله أعلم بحقيقته.

#### رابعا: يوسف في بيت العزيز ومراودة امرأة العزيز:

وبعد أن استقر يوسف في بيت العزيز ووجد الحفاوة والشفقة من قبل العزيز، كانت العناية الإلهية قد بدأت في تمهيد السبيل له ليصل إلى مرتبته العليا بعد حين من الدهر. وكان العزيز يعامله مثل ابنه إلا أن زوجته الحسنة كانت تراوده عن نفسه. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي

٢٤- سورة يوسف، الآية: ١٩.

٢٥- سورة يوسف، الآية: ٢٠.

٢٦- سفر التكوين: ٢٥/٣٧-٢٧.

٢٧- سفر التكوين، ٣٧: ٢٨.

٢٨- سفر التكوين، ٣٧: ٣٦.

٢٩- سفر التكوين، ٣٩: ١.

٣٠- أبو جعفر الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ: ١٢/١٧٥؛

والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١٦٠/٩.



هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣١﴾.

لقد أعجبت سيّدة البيت امرأة العزيز بجمال يوسف وشبابه ووسامته وكمال رجولته، ففتنت به، وأحبّته وعشقتة فقامت بمحاولات كثيرة متعددة، ولجأت إلى حيل متنوعة لإغراء يوسف والإيقاع به في حبالها، وتلفت نظره إلى جمالها، ومواضع الفتنة في جسدها، إلى غير ذلك من الأفعال والأقوال التي تهيج الغرائز الكامنة، وتحرك الشهوات الساكنة. ومن هنا ظهر لنا سرّ التعبير القرآني بكلمة "راودته" فالمرادة على وزن المفاعلة، وهي صيغة تدل على المبالغة في هذا الأمر وكثرة تكراره ومعاودته.

لقد استفرغت امرأة العزيز جميع أساليب التلميح، ولم يعد أمامها لكي تصل إلى بغيتها إلا التصريح والمجاهرة بالفعل<sup>(٣٢)</sup>، فقامت بتعليق جميع الأبواب وتمزيق أقمعة الحياء وصرّحت بحبها وطالبته في نفسه ودعته إليها، قال تعالى: ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾.

أما يوسف فهو العفيف الطاهر، التقيّ الصابر، الثابت الصامد، ظلّ كالطود الشامخ أمام أمواج الفتن وأعاصير المحن لا يهرّج منها شيء، ولا تحرك ساكنه الزوابع. بل كان ردّه كما صرّح القرآن الكريم: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

الهم والبرهان:

إن المعركة العنيفة بين نداء العقل والعفاف، ونداء الشهوة الجامحة لم ينته عند ذلك الحد بل يحكي لنا القرآن الكريم صداما آخرًا بينهما فيقول ربنا جلّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾<sup>(٣٣)</sup>.

وفي هذه الآية الكريمة خلط بعض المفسرين بين الأقوال الصحيحة والأقوال السقيمة خلطًا كبيرًا، فقد ذكروا روايات لا أصل لها في الشرع من حل الهميان والسراويل والجلوس منها مجلس الخاتن<sup>(٣٤)</sup>...، وذلك ما لا يمكن أن ينسب لنبيّ من الأنبياء الكرام. وقال أبو حيان عن هذه

٣١- سورة يوسف، الآية: ٢٣.

٣٢- يقول سيد قطب: هذه الدعوة الجاهرة الغليظة لا تكون أول دعوة من المرأة، إنما تكون هي الدعوة الأخيرة.

انظر: في ظلال القرآن، ص ١٩٨.

٣٣- سورة يوسف، الآية: ٢٤.

٣٤- انظر تفسير الطبري: ١٨٠/٧، والسيوطي: الدر المنثور، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م: ٥٢١/٤.

الإسرائيليات: "... نسب بعضهم ليوسف عليه السلام ما لا يجوز نسبته إلى أحد الفساق" (٣٥).  
ووصف سيد قطب هذه الإسرائيليات بأنها تصورات أسطورية لا أساس لها من الصحة، فهي واضحة التلفيق والاختراع (٣٦).

فما هو الهمّ الذي وقع من سيدنا يوسف عليه السلام والذي صرّح به القرآن الكريم؟ التفسير الذي نرجّحه أنه كان الميل الطبيعي للرجال إلى النساء الجميلات دون العزم والتصميم على فعل الفاحشة، فالله سبحانه وتعالى لا يعاقب على ذلك، بل يعاقب على ارتكاب الجريمة. كما ورد في الحديث القدسي الصحيح المخرج في الصحيحين: يقول الله تعالى: "إذا همّ عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها وإن همّ بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإنما تركها من جرائي فإن عملها فاكتبوها بمثلها" (٣٧).

ولكنه حينما تذكّر عهد الله وميثاقه ومهمّته في الحياة وفضل الله عليه تجنّب ذلك واحترز. وقيل: كان الهمّ هو خطرات حديث النفس، والعبء لا يعاقب عليها. ويقول فريق آخر: إنه لم يقع الهم منه مطلقاً، فالكلام فيه تقديم وتأخير، فالتقدير: ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها (٣٨). واختلفوا كذلك في (البرهان) الذي رآه يوسف عليه السلام، فاعتصم.

فقيل (٣٩) إن زليخا قامت عندما همّت به وهمّ بها إلى صنم لها في زاوية البيت فسترته بثوب فقال: ما تصنعين؟ قالت: أستحيي من إلهي هذا أن يراني على هذه الصورة فقال يوسف: أنا أولى أن أستحيي من الله تعالى. وقيل إنه رأى في سقف البيت مكتوباً ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ (٤٠). وقيل: رأى كفاً مكتوباً عليها ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ (٤١). وقيل: نودي يا يوسف

٣٥- يراجع ابن حيان: البحر المحيط: ٢٩٠/٥.

٣٦- يراجع: في ظلال القرآن: ١٩٨١/٤.

٣٧- البخاري، محمد بن اسماعيل: صحيح البخاري، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٨٧م: ٢٣٨٠/٥، رقم:

٦١٢٦. مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم: ١١٨/١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، رقم: ١٣١. أيضاً

في مختصر تفسير ابن كثير: ٣٤٥/٢.

٣٨- محمد بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٦م: ٢١٧٨/١.

٣٩- انظر الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير، دار الفكر، بيروت، ٢٦/٣.

٤٠- سورة الإسراء، الآية: ٣٢.

٤١- سورة الإنفطار، الآية: ١٠.

أنت مكتوب في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء؟ وقيل رأى صورة يعقوب على الجدار عاضاً على أناملته يتوعده. وقيل غير ذلك<sup>(٤٢)</sup>. والذي يصحّ عندنا هو تذكُّر عهد الله وميثاقه وفضل الله عليه وكونه من ورثة الأنبياء ومهمته العظيمة كنبى في حياته.

### موقف الرواية الإسرائيلية:

أما الرواية الإسرائيلية فلم تذكر عن همّ يوسف شيئاً والحيلة التي اتخذت امرأة العزيز كانت لاصطياد يوسف في قفص شهوتها، بل تقفز مباشرة إلى قول المرأة ليوسف "اضطجع معي"<sup>(٤٣)</sup>، فكما ورد في سفر التكوين ما يلي:

"وحدث يوماً أنه دخل البيت ليقوم بعمله، ولم يكن في المنزل أحد، فأمسكته بقميصه، وقالت: "اضطجع معي". فترك رداءه بيدها وهرب خارجاً تاركا رداءه بيدها، وعندما رأت أنه قد رفض وهرب خارجاً تاركا رداءه بيدها، نادى أهل بيتها وقالت: انظروا ما جرى؟ هذا العبراني الذي جاء به زوجي إلى البيت، شرع يراودني عن نفسي. دخل غرفتي وحاول اغتصابي، فصرخت بأعلى صوتي. وعندما سمعني قد رفعت صوتي وصرخت، ترك رداءه معي وهرب خارجاً". وألقت رداءه إلى جانبها، حتى قدم مولاه إلى بيته، فقصّت عليه مثل هذا الحديث قائلة: دخل العبد العبراني الذي جنّث به إلينا ليراودني عن نفسي، وحين رفعت صوتي وصرخت، ترك ثوبه بجانبني وفرّ خارجاً"<sup>(٤٤)</sup>.

والأمر الغريب في هذه الرواية أن يكون يوسف عليه السلام قد لبس قميصاً، حتى إذا وقعت عليه يد امرأة العزيز، طار القميص بسهولة ووقع في يدها!! ثم بعد ذلك صاحت المرأة وفرّ يوسف عليه السلام هاربا عريانا، تاركا البرهان القاطع على ارتكابه للجريمة!! فمن يشكّ بعدئذ على كونه مجرماً حقيقياً وكون امرأة العزيز بريئة عفيفة!!

ويأيد لكل عاقل ذي بصيرة أن ما بيّنه القرآن الكريم هو الأليق بخلق ذلك النبيّ الكريم سيدنا يوسف عليه السلام مما بيّنته التوراة في سفر التكوين.

فهل يعقل بعدئذ من المستشرقين المتعصّبين أن يدّعوا بأن القرآن الكريم إنما نقل هذه القصص من التوراة والإنجيل؟ بل القرآن هدّب قصص الأنبياء من التحريف والتغيير والتشويهات التي لحقت بها في الكتب السابقة وبيّن القصص كما هي بصورتها الحقيقية الأصلية الناصعة النقية للناس أجمعين.

٤٢- المرجع نفسه.

٤٣- سفر التكوين، ٣٧: ٧.

٤٤- سفر التكوين، ٣٧: ١١-١٨.

## شهادة الشاهد ببراءة يوسف :

ولما ادّعت امرأة العزيز دعوها الكاذبة واتهمت يوسف اتهاما باطلا ويوسف بريء من ذلك ، في الوقت الذي لم يكن معه فيه من يؤيد قوله ويدافع عن عرضه وعفته وبراءته ، سخر الله تعالى له في تلك اللحظة الحرجة من يدلى بشهادته لتثبت براءة يوسف أمام العزيز، وألقى الله هذه الشهادة على لسان من هو من أهلها، لتكون أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف عليه السلام، وذلك أدل على نزاهته وأنفى للتهمة عنه(٤٥)، فقال تعالى: ﴿...وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّمَ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقْتَ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّمَ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٤٦). ورغم أهمية قصة هذا الشاهد وروعة مغزاها، لم يوجد في الرواية الإسرائيلية أدنى إشارة إليها.

وأما كتب التفاسير فقد اختلفت آراء المفسرين(٤٧) في هذا الموضوع، فقد قال بعضهم: إنه كان من ابن خال لها، وقيل: كان ابن عم لها، وقيل: هو الذي كان جالسا مع زوجها لدى الباب، وقيل: كان حكيما يرجع إليه الملك ويستشيره. وقيل: كان صبياً في المهدي أنطقه الله تعالى فتكلم ما تكلم.

ولا نظن أن الموقف يحتاج إلى إثبات معجزة وركوب الصعب في إنطاق الرضيع، فإن الحديث الذي يذكر في هذا المقام أشار إليه الألباني بالضعف(٤٨)، وأغلب الظن والله أعلم أنه كان مع العزيز لدى الباب، ضيفا قادما على الدار... (٤٩).

٤٥- يراجع: الألوسي، أبو الفضل: روح المعاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ٢٢١/١٢؛ الزمخشري،

أبو القاسم: الكشاف، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٢م: ٥٨١/١.

٤٦- سورة يوسف، الآيتان: ٢٦-٢٧.

٤٧- يراجع: الكشاف: ٥٨١/١، روح المعاني: ٢٢٢/١٢، ابن الجوزي، عبد الرحمن: زاد المسير: المكتب

الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ: ٢١١/٤.

٤٨- فقد قال: والعجب كيف أورده الحاكم وصححه والأعجب كيف وافقه الذهبي.... وقال أيضاً: هذا

الحديث بهذا الإسناد باطل عندي، يراجع: الألباني، محمد ناصر الدين: سلسلة الأحاديث الضعيفة

والموضوعة وأثرها السيئ على الأمة، مكتبة المعارف، الرياض، حديث: ٨٨٠.

٤٩- ينظر: محمد علي قطب: يوسف وامرأة العزيز، مكتبة القرآن، القاهرة، ص ٢٤.

## امرأة العزيز ونسوة المدينة:

رغم محاولة العزيز كتمان هذه الواقعة وحرصه الشديد على ستر تلك الفضيحة تسربت رائحتها وكشف ستارها وانتشر خبرها بسرعة في المجتمع، وأكثر من لعب دوراً في ذلك، نسوة المدينة - وهذا ديدنهن - بالحديث فيها وترويجها للناس على سبيل النقد والتشهير والتعجب وذلك كما أخبرنا القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٥٠).

ولمحاولة تقديم عذر لها فيما فعلت أمام اللاتمين لها، وتبرير موقفها أعدت امرأة العزيز طعاما وشرايا وفواكه لهن، ودعتهن جميعا إلى بيتها، فأكلن وشربن، وبدأن في تقطيع ما قدم لهن من الفواكه بالسكاكين. وفي تلك الأثناء أمرت امرأة العزيز يوسف بالخروج عليهن. وهناك وقعت الكارثة. ولقد أثر جمال يوسف الفائق وحسنه الرائق وطلعته البهية على لبّ النسوة، وشغف قلوبهن حباً وعشقا وطرباً، فنال ألسنتهن ثناءً ومدحاً، وترك على أيديهن دماء وجرحا، وعلى أبصارهن سكرة وحية، وعلى عقولهن ذهولا ودهشة، قال تعالى مخبرا عن حالهن: ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (٥١).

ولما فعلت النسوة ما فعلت شعرت امرأة العزيز بانتصارها عليهن، ووجدت الفرصة لتبرر ما فعلته ولتردد على لومهن، فقالت لهن على سبيل التفاخر والتشفي والزهو، وبدون استحياء أو تلميح: ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ فلقد أعجبكن حسنه وجماله كما أعجبني فكيف لمتنني فيه ولماذا أيها اللائئات العاذلات؟ ولماذا أصابكن الانبهار به والدهشة من أول ما وقع نظركن عليه، فكيف وقد أطلنا سقف واحد؟ كيف بي وقد ترعرع على مرأى ومسمع مني؟

ثم صرحت أمامهن معترفة بأنها قد حاولت إغراءه بشتى المغريات لإيقاعه في شباك هواها وشهوتها فقالت: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (٥٢).

٥٠ - سورة يوسف، الآية: ٣٠.

٥١ - سورة يوسف، الآية: ٣١.

٥٢ - سورة يوسف، الآية: ٣٢.

ومع هذا التهديد السافر ظل يوسف كالطود الشامخ لا تحركه عواصف ولا تهدّه رياح الفتن العاتية ولذا نراه يفضل دخول السجن على الوقوع في الفاحشة، وقال تعالى: ﴿ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٥٣).

فالذي يحفظ الإنسان من الفتنة والسوء والفحشاء هو الله رب العالمين، ولذلك فلا يغتر الإنسان بنفسه والاعتداد بها، ولا يأخذ العجب بثقته فيها. بل ينبغي عليه أن يتهم نفسه دومًا بقلّة الهمة والتقصير وبضعف الإرادة، ومن هنا عليه أن يستعين بالله عزّ وجل لكي يصرف عنه السوء والفحشاء. قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (٥٤).

فهذا الحديث عن نسوة المدينة وموقف يوسف عليه السلام تجاههن لا نجد له ذكراً إلا في القرآن الكريم، ومع ذلك ورغم أهميته الفائقة لا نجد له أثراً في العهدين القديم والجديد.

#### خامساً: يوسف في السجن والقيام بالدعوة إلى الله:

ثم بيّن الله سبحانه وتعالى ما قام به يوسف في السجن من الدعوة إلى التوحيد، وإقامة الأدلة على صحة ما يدعو إليه، وتفسير رؤيا صاحبيه في السجن، وقد حكى القرآن الكريم كل ذلك بأسلوب بديع مؤثر فقال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥٥).

وهذه الشهادة ليوسف من قبل السجناء ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ تدل على أن يوسف كان معزّزاً ومكرّماً لدى الناس في داخل السجن وخارجه، لأنهم كانوا يعرفون أن هذا الفتى بريء لم يدخل السجن لجريمة اقترفها، ولكن لتهمة ظالمة لحقت به، لأنه كان معروفاً بصلاحه وطهارته وعفته ونزاهته وكريم أخلاقه.

والرواية الإسرائيلية هنا لا تخالف ما قصه القرآن الكريم في هذا الصدد بل تؤكد ذلك حيث جاء في سفر التكوين: "ولكن الرب كان مع يوسف وبسط إليه لطفًا وجعل نعمة له في عينيّ رئيس بيت السجن، فدفع رئيس بيت السجن إلى يد يوسف جميع الأسرى الذين في بيت السجن وكل ما

٥٣- سورة يوسف، الآية: ٣٣.

٥٤- سورة الأعراف، الآيتان: ٢٠٠-٢٠١.

٥٥- سورة يوسف، الآية: ٣٦.

كانوا يعملون هناك كان هو العامل، ولم يكن رئيس بيت السجن ينظر شيئاً البتة مما في يده لأن الرب كان معه و مهما صنع كان الرب ينجحه” (٥٦).

وقبل أن يفسر يوسف رؤياهما أخذ يمهد لذلك ولما لأجله قد بُعث وذلك بأن بدأ يعرفهما بنفسه وبعقيدته، ويدعوها إلى وحدانية الله بالأدلة المقنعة لتهيئة نفوسهما لقبول كلامه، فقال كما أخبرنا القرآن الكريم: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِنَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٥٧).

بعد هذا التمهيد الرائع أخذ يوسف يلفت أنظارهما إلى فساد عقيدتهما وبطلانها بأسلوب يرشدهما إلى التفكير والتدبر وإعمال العقل والمنطق وبطريقة تقوم على بدهة عقلية ونفسية وواقعية، وكل ذلك لإقامة الأدلة على وحدانية الله سبحانه وتعالى، فقال كما يحكي لنا القرآن الكريم: ﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٥٨).

قال صاحب الظلال عند تفسير هذه الآية: “لقد رسم يوسف بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المنيرة، كل معالم هذا الدين، كل مقومات هذه العقيدة كما هز بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية هزاً شديداً عنيفاً... ﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ ﴾ أن يتخذ منهما صاحبين، ويتحجب إليهما بهذه الصفة المؤنسة، ليدخل من هذا المدخل إلى صلب الدعوة وجوهر العقيدة... ﴿ أَرَبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ وهو سؤال يخاطب الفطرة في أعماقها ويهزها هزاً شديداً كما أن الفطرة لا تعرف لها إلا إلهاً واحداً، ففيم إذن تعدد الأرباب؟ إن الذي يستحق أن يكون رباً يعبد هو الله الواحد القهار (٥٩).

٥٦- سفر التكوين، ٣٩: ٢١-٢٣.

٥٧- سورة يوسف، الآيتان: ٣٧-٣٨.

٥٨- سورة يوسف، الآية: ٣٩.

٥٩- في ظلال القرآن: ٤/١٩٨٩.

ثم ركز يوسف على نقد العقائد الباطلة ورفضها بأسلوب بليغ، فقال كما قص علينا القرآن الكريم: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ... ﴾ (٦٠).  
 فبعد أن أقام يوسف الأدلة الدالة على التوحيد، ورفض العقائد الفاسدة، دعا إلى ضرورة التوجه إلى الله نحو الأمر بإخلاص العبادة له وحده، فقال - كما جاء في القرآن الكريم -: ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ أي أن الحكم والتصرف والمشيشة والملك كله لله وقد أمر عباده قاطبة ألا يعبدوا إلا إياه.

هكذا بين لنا القرآن الكريم كيف سلك يوسف طريقة التدرج في دعوة صاحبيه إلى توحيد الله تعالى، وكيف التزم الحكمة والموعظة الحسنة في دعوتهما، وكيف استغل فرصة الدعوة وأثرها على تفسير الرؤيا، وذلك لأنه عليه السلام لم يكن عالماً يُؤوّل الرؤيا فحسب وإنما كان رسولا كريما، كلما كان يرى فرصة يتنفس فيها برسالته انتهزها أو نهزة للدعوة علق بها (٦١).

أما الرواية الإسرائيلية فلم تشر إطلاقاً إلى قيام يوسف بالدعوة إلى التوحيد، ولهذا فإن الإشارة إلى التوحيد والآخرة وتبليغ الدعوة في قصة يوسف مقصورة على القرآن الكريم دون الرواية الإسرائيلية.

سادسا: يوسف يعبر رؤيا الملك:

بعد أن دعا يوسف عليه السلام صاحبيه في السجن إلى دين الله عز وجل، فسّر لهما رؤياهما فقال كما أخبر الله عز وجل: ﴿ يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمْمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ (٦٢).

ثم أوصى الساقى الذي سينجو كما في تأويله للرؤيا - وكان صادقا في تعبيره - أن يذكر أمره عند الملك، ولكن الشيطان أنساه ذكره لدى الملك، فمكث في السجن بضع سنين - قيل: حوالي عشر سنين كما ذكره السيد أبو الأعلى المودودي رحمه الله تعالى - ولما خرج من السجن كان عمره ثلاثين سنة (٦٣).

٦٠- سورة يوسف، الآية: ٤٠.

٦١- ينظر: أحمد جاد المولى: قصص القرآن، دار القلم العربي، دمشق، ١٩٩٣م، ص ١٠٣.

٦٢- سورة يوسف، الآية: ٤١.

٦٣- المودودي: تفهيم القرآن: ٤٠٠/٢، يوسف، رقم الحاشية ٣١.



وقد شاءت الأقدار أن يرى الملك في منامه الرؤيا الغريبة المفزعة، فجمع الملك حاشيته، ويطانته، وكهنته، ومستشاريه وعرض عليهم رؤياه ليعبروها له، يقول الله عز وجل في كتابه المحكم عن ذلك: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنَّ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ (٦٤). ولكنهم عجزوا عن تعبير رؤيا الملك فردوا عليه: ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ (٦٥).

وأضغاث أحلام: تخاليطها وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان. وهنا جاءت الرواية الإسرائيلية موافقة لما في القرآن الكريم بشأن عجز الملا عن تأويل الرؤيا، ففي التوراة: "فأرسل ودعا جميع سحرة مصر وجميع حكمائها وقصّ عليهم حلمه فلم يكن من يعبره له" (٦٦)، ولكنها تختلف عن الرواية القرآنية في عدد الرؤيا التي رآها الملك حيث أن رؤيا الملك في القرآن واحدة بينما هي في التوراة رؤيتان، وفي صورتين مختلفتين (٦٧).

فبعد أن سمع الساقى الرؤيا التي رآها الملك، ورأى حيرة القوم، تذكّر بعد فترة من السنين قصته مع يوسف في السجن وتأويله الصادق لرؤياه، قال: إنني أعرف رجلا يعبر الرؤيا، أرسلوني إليه لأسأله، ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ (٦٨) فلما أرسلوه إلى يوسف في السجن خاطبه باحترام وتعظيم وإجلال قائلاً - كما أخبرنا القرآن الكريم: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٦٩).

فالقرآن الكريم يحكي لنا أن تعبير الرؤيا طُلب من يوسف عليه السلام، بينما تحكي الرواية الإسرائيلية أن يوسف هو الذي تقدّم بتعبير الرؤيا (٧٠)، والاختلاف واضح.

٦٤- سورة يوسف، الآية: ٤٣.

٦٥- سورة يوسف، الآية: ٤٤.

٦٦- سفر التكوين، ٤١: ٨.

٦٧- سفر التكوين، ٤١: ١-٧، ٣٢.

٦٨- سورة يوسف، الآية: ٤٥.

٦٩- سورة يوسف، الآية: ٤٦.

٧٠- سفر التكوين، ٤١: ٢٥.

ثم تختلف الرواية الإسرائيلية عن القرآن الكريم في أنها ذكّرت أنّ فرعون هو الذي قصّ حلمه على يوسف حيث ورد في التوراة: "فقال فرعون ليوسف حلمتُ حلماً و ليس من يعبره وأنا سمعت عنك قولاً أنك تسمع أحلاماً لتعبّرها..." (٧١)، وفيها أيضاً: "فقال فرعون ليوسف إني كنت في حلمي واقفاً على شاطئ النهر" (٧٢). أما في القرآن فالذي قصّ الحلم هو الذي نجا من قبل ثم أبلغ فرعون تأويله. وبعد أن سمع يوسف عليه السلام تفاصيل الرؤيا من الساقى قال بلسان الوائق من نفسه وعلمه ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ . ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴾ (٧٣).

فالآيات تصرّح بأن يوسف عليه السلام فسّر البقرات السمان والسنبلات الخضراء، بالسنين السبع المخصبة، وفسّر البقرات العجاف والسنبلات اليابسات، بالسنين السبع المجذبة التي ستأتي في أعقاب السنين المخصبة، وفسّر ابتلاع البقرات العجاف للبقرات السمان، بأكلهم ما ادخر في السنوات المخصبة في السنوات المجذبة (٧٤).

ولم يكتف يوسف بمجرد تأويل الرؤيا الصادق بل بادهم بالنصح والإرشاد، ووضع لهم خطة عمل لمواجهة القحط والجذب والجفاف. ثم بشرهم بأنه سيحلّ عليهم الرخاء بعد تلك السنين المجذبة، فقال: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ ﴾ (٧٥).

#### خروج يوسف من السجن:

ولما ذهب الساقى إلى الملك وأخبره بتأويل يوسف لرؤياه، طلب إحضاره بين يديه، فعاد الساقى إليه مرة ثانية طلباً لخروج يوسف من السجن لمقابلة الملك، ولكنه رفض الخروج إلا بعد ظهور براءته من امرأة العزيز ونسوة المدينة، وقد سجّل القرآن الكريم هذا المشهد الرائع العجيب في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ (٧٦).

٧١- سفر التكوين، ٤١: ١٥.

٧٢- سفر التكوين، ٤١: ١٧.

٧٣- سورة يوسف، الآيتان: ٤٧-٤٨.

٧٤- يرجع: الكشاف: ٥٨٩/١-٥٩٠.

٧٥- سورة يوسف، الآية: ٤٩.

٧٦- سورة يوسف، الآية: ٥٠.

والطريف أن الرواية الإسرائيلية حطّت من شأن يوسف في عرض قدومه على الملك، إذ ورد في سفر التكوين: "فأرسل فرعون ودعا يوسف فأسرعوا به من السجن، فحلق وأبدل ثيابه، ودخل على فرعون" (٧٧). وورد في التلمود أن يوسف عليه السلام دهش بزخارف عرش الملك وزينته، وخاف أن يخاطبه، فنزل الملك إلى السلم الثالث ليخاطب يوسف (٧٨).

وبناء على ما قاله يوسف جمع الملك كل النسوة وخاطبهن بقوله - كما في القرآن الكريم -: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَأَوْتَنِّي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴾ (٧٩).

هكذا خرج يوسف من السجن - بعد أن ظهرت براءته ظهور الشمس في رابعة النهار - مرفوع الرأس، وضاح الجبين، طاهر الذيل، بريء الساحة، نقي الصفحة.  
سابعاً: يوسف عزيز مصر:

بعد أن بيّن يوسف عليه السلام تأويل الرؤيا للملك وقدم النصح والإرشاد والخطة العملية لمواجهة السنين المجدبة لثلا يواجه الشعب بالقحط العام النازل في بضع سنين، تأثر الملك بيوسف تأثراً بليغاً لما رأى فيه مخايل الأمانة وحكمة التصرف وعزّة النفس وأمارات السيادة. فطلب منه أن يقدم خدماته للشعب المصري لينقذهم من الهلاك والدمار. فقال يوسف للملك: ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (٨٠).

فطلب يوسف عليه السلام خزائن الأرض ليتوصل به إلى نشر العدل ورفع الظلم وتوصيل الحقوق إلى أهلها من الفقراء، ومن ثم كان ذلك مدخلاً طيباً إلى دعوة أهل مصر إلى الإيمان بالله وترك عبادة الأوثان، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه، فإنه لم يكن هناك غيره (٨١). فالقرآن الكريم يقول إن يوسف هو الذي طلب مسؤولية الخازن من الملك. أما الرواية الإسرائيلية فتحكي لنا عكس ذلك حيث جاء في سفر التكوين ما يدل على أن مسؤولية الخازن لم يطلبها يوسف وإنما هي عرضت على يوسف، كما قال فرعون ليوسف بعد أن سمع تأويل رؤياه: "ها أنا قد وليتك على كل أرض مصر" (٨٢).

٧٧- سفر التكوين، ٤١ : ١٤.

٧٨- تفهيم القرآن، ٤٠٧/٢، سورة يوسف، حاشية ٤٢.

٧٩- سورة يوسف، الآيات: ٥١-٥٣.

٨٠- سورة يوسف، الآية: ٥٥.

٨١- انظر تفسير القرطبي: ١٨٤/٩، فتح القدير: ٥١/٣، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ: ٦٣٣/٢.

٨٢- سفر التكوين، ٤١ : ٣٧-٤٥.

## إخوة يوسف في مصر :

ولما أصاب يعقوب وأهله القحط و الضيق في عيشتهم أرسل أبناءه باستثناء بنيامين إلى مصر في طلب القوت، ذلك لأن مصر كانت محلّ ورود الناس من مختلف البلاد والأقاليم لطلب الرزق. ومن هنا بدأت رحلات الإخوة إلى مصر. دخل الإخوة على يوسف فعرف أنهم إخوته بملامحهم وكلامهم وأزيائهم الخاصة بفلسطين<sup>(٨٣)</sup>، أما هم فلم يعرفوه لطول عهد فراقهم له في سنّ الحداثة ونسيانهم إياه وتوهمهم أنه هلك حين ألقوا به في البئر، قال تعالى: ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾<sup>(٨٤)</sup>. ثم إن يوسف دخل في حوار مع إخوته واستدرجهم في الكلام حتى ذكروا له حالهم على وجه التفصيل، فعرف من كلامهم أن لهم أخاً صغيراً من أبيهم لم يحضر معهم لأن أباهم يحبه حباً جماً ولا يطيق فراقه.

وبعد أن قدّم لهم ما يحتاجون إليه من الطعام والميرة، طلب منهم أن يحضروا معهم أخاهم الصغير في المرة القادمة، ورغبهم بقوله: ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾<sup>(٨٥)</sup>. ثم جمع بين الترغيب والترهيب فقال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾<sup>(٨٦)</sup>. ثم أمر يوسف فتيناه أن يجعلوا بضاعتهم في رحالهم ليكونوا شاكرين وفرحين على هذا الكرم والجود والسماحة، ويجدوا في أنفسهم رغبة لياتوا بأخيهم بنيامين في المرة القادمة.

أما الرواية الإسرائيلية فهي تفاجئنا بصورة غريبة عن محاورة دارت بين يوسف وإخوته، تذهب فيها إلى أن يوسف الصديق إنما عرف إخوته منذ اللحظة الأولى للقائه بهم، وأنه قد اتهمهم بالتجسس ثم حبسهم أياما ثلاثة، ثم أطلق سراحهم وخلّى سبيلهم، وقيّد أخاهم "شمعون" على مرأى منهم، حتى يعودوا إليه بأخيهم "بنيامين"<sup>(٨٧)</sup>. وهذا التهديد إن حملناه محمل الجدّ، فلا بد من القول بأنه يدل على أن يوسف كان يحمل حقدا دفيناً على إخوته، وهو أمر لا نشكّ في براءة يوسف منه. وهذه الصفة لا تتفق مع الصورة التي رسمها القرآن الكريم لشخصية يوسف، وما اتسمت به من

٨٣- طيارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن الكريم، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م، ص ١٧٤.

٨٤- سورة يوسف، الآية: ٥٨.

٨٥- سورة يوسف، الآية: ٥٩.

٨٦- سورة يوسف، الآية: ٦٠.

٨٧- ينظر: سفر التكوين، ٤٢: ٧-٢٨.

حلم وإخلاص و برّ، فهو الذي علّمه ربّه وطهّر قلبه من الحسد، قال تعالى مُنَوِّهَا بِشَأْنِهِ: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٨٨).

وأيضاً ذكر في الرواية الإسرائيلية أن يوسف حلف باسم فرعون، ونجزم أن يوسف عليه السلام بريء منه، إذ لا يجوز لمؤمن أن يحلف بغير الله، فكيف إذا كان رسولا نبياً! فقد ورد في سفر التكوين ما نصّه: "أنتم جواسيس، وحياة فرعون إنكم لن تغادروا هنا حتى تأتوا بأخيكم الأصغر، وبذلك تثبتون صدقكم" (٨٩).

فرجعوا إلى أبيهم وأخبروه أنه سيمنع منهم الكيل إن لم يذهبوا بأخيهم الصغير إلى العزيز. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكَتْلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٩٠).

وبهذا ثارت في نفسه ذكريات الماضي فأجابهم والحسرة تملأ فؤاده، كما ذكره الله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ (٩١). ثم فوّض أمره إلى الله وتوكّل عليه حيث قال: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وقول يعقوب هذا يدل على أنه وافق على أن يذهب بنيامين معهم إلى مصر.

ولكن الرواية الإسرائيلية تصرّح أن يعقوب عليه السلام أنكر أن يرسل بنيامين معهم، فقد ورد فيها: "فقال: لن يذهب ابني معكم، فقد مات أخوه، وهو وحده باق، فإن ناله مكروه في الطريق التي تذهبون فيها، فإنكم تنزلون شيبتي بحزن إلى قبوري" (٩٢). وأما القرآن فليس فيه هذا المعتقد اليائس من روح الله ورحمته.

وارتحل الإخوة قاصدين إلى مصر ومعهم بنيامين أخو يوسف الشقيق ودخلوا من أبواب متفرقة من حيث أمرهم أبوهم، فدخلوا على يوسف، فأكرمهم وقام بضيافتهم، وضمّ إليه شقيقه بنيامين، وقال له مواسيا: إني أنا أخوك فلا تأسف على ما صنعوا بي ولا تحزن على ذلك،

٨٨- سورة يوسف، الآية: ٢٤.

٨٩- سفر التكوين، ٤٢: ١٤-١٥.

٩٠- سورة يوسف، الآية: ٦٣.

٩١- سورة يوسف، الآية: ٦٤.

٩٢- سفر التكوين، ٤٢: ٣٨.

قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٣).

لما أعطى يوسف إخوته ما يحتاجون إليه من زاد وطعام أمر أعوانه أن يدسوا صواع الملك في متاع أخيه بنيامين دون أن يشعر به أحد. ثم طفق أعوان يوسف يبحثون عن ذلك الصواع فلم يجدوه، فاتهمهم بالسرقة، ونادى أعوان يوسف قائلين: أيها الركب إنكم لسارقون، فالتفت الإخوة إليهم وقالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ (٩٤). فقال لهم الفتیان: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٩٥). فأجاب الإخوة قائلين: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٩٦).

ثم إن أعوان يوسف عليه السلام شرعوا يفتشون أوعيتهم قبل وعاء أخيه تورية حتى لا يظن أن الأمر مدبر من قبل، كما ورد في القرآن: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (٩٧).

فكان من تدبيره الجميل ليوسف عليه السلام أنه عمل حسب شريعتهم، فإنه لا يمكنه أن يحبس أخاه في شريعة ملك مصر، بل يعاقب السارق على سرقاته، دون أن يستولي على أخيه (٩٨). فبقي بنيامين مع يوسف عليه السلام، ورجع الإخوة الآخرون إلى أبيهم، إلا الأخ الأكبر، فإنه قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتِيَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ. ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (٩٩).

- 
- ٩٣- سورة يوسف، الآية: ٦٩.  
٩٤- سورة يوسف، الآية: ٧٣.  
٩٥- سورة يوسف، الآية: ٧٤.  
٩٦- سورة يوسف، الآية: ٧٥.  
٩٧- سورة يوسف، الآية: ٧٦.  
٩٨- في ظلال القرآن: ٤ / ٢٠١٩-٢٠٢٠.  
٩٩- سورة يوسف، الآيتان: ٨٠-٨١.

فرجع الإخوة إلى أبيهم وقصّوا عليه ما حدث لهم، كما لقّنه إياهم أخوهم الكبير، فما ازدادوا حجة إلا ازداد يعقوب شبهة في قولهم. فقال قولته التي تليق بشأنه كرسول كريم من عند الله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (١٠٠).  
وأيضاً: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٠١).

ولما جهّز الإخوة جهازهم وحملوا متاعهم وبضاعتهم للرحيل إلى مصر للمرة الثالثة (١٠٢)، امتثالاً لأمر يعقوب ونصيحته، وقد هدّهم التعب، وكدهم العيش، وضاق بهم السبيل، وكاد أن يقضي عليهم القحط القاتل، ونفدت منهم النقود، وجاؤوا ببضاعة رديئة، يدخلون وفي حديثهم انكسار، انتهى الأمر بهم إلى التسوّل. قال تعالى مخبراً عن أحوالهم: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (١٠٣).  
ولكن يوسف كان دقيق الحسّ، رقيق القلب، لطيف الوجدان، وإلى هذا الحد لا يطبق أن يرى على إخوته الذلّ والتذللّ، والمهانة والاستكانة، وطلب الصدقة والمعونة، ومن ثم فقد أعلمهم بحقيقة أمره، وقال لهم: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ (١٠٤). قال لهم ذلك على سبيل التعريض بهم والتذكير بأخطائهم، وهو الذي قال الله له حين أوحى إليه في البئر: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٠٥).

وهنا انكشفت أمام الإخوة سمات أخيهم يوسف، فسألوه في دهشة وعجب: ﴿قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾؟! ولم ينكر يوسف عليه السلام بعد أن رأى الحال الذي وصل إليه إخوته: ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٠٦).

١٠٠ - سورة يوسف، الآية: ٨٣.

١٠١ - سورة يوسف، الآية: ٨٦.

١٠٢ - أما في التوراة، فنجد ذكر رحلة إخوة يوسف مرتين فقط إلى مصر، فقد كشف يوسف عليه السلام عن نفسه في المرة الثانية لإخوته. راجع سفر التكوين، ٤٤: ١٨-٣٤، ٤٥: ١-١٥.

١٠٣ - سورة يوسف، الآية: ٨٨.

١٠٤ - سورة يوسف، الآية: ٨٩.

١٠٥ - سورة يوسف، الآية: ١٥.

١٠٦ - سورة يوسف، الآية: ٩٠.

وهنا تجسّد في أذهان الإخوة ما فعلوه معه في الماضي، فانتابهم الخزي والخجل، فقالوا له معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخلق والخلق والسعة والملك، ومقرّين له بإساءتهم إليه وأخطاءهم في حقه (١٠٧): ﴿قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (١٠٨).

فما لبث يوسف بعد سماع هذا الكلام إلا أن أعلن عفوهم عنهم، ثم زادهم عفوا بأن دعا لهم بالمغفرة: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّٰهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٠٩).

فأرسل قميصه لأبيه وأرشدهم ليأتوا به وبأهلهم أجمعين. فألقوا قميصه على وجه أبيه فارتد بصيرا. فأتوا جميعا إلى يوسف عليه السلام مع أهاليهم وعيالهم، فرفع أبيه على العرش وخرّوا له سجّدا، مصدقا للرؤيا التي رآها يوسف في صغره فقال: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (١١٠).

أما إذا قارنا ذلك بالعهد القديم من الكتاب المقدس فنرى أن حكايتها خالية من جانب الهداية والنصح والإرشاد، بل مليئة بالتفاصيل التاريخية وأسماء الرجال الذين لا طائل من وراء ذكرهم. فقد ورد في سفر التكوين: "وقال يوسف لإخوته أنا أموت ولكن الله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التي حلف لإبراهيم وإسحق ويعقوب، واستحلف يوسف بني إسرائيل قائلا إن الله سيفتقدكم فتصعدون عظامي من هنا، ثم مات يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين فحنطوه ووضع في تابوت في مصر" (١١١).

١٠٧- يراجع: محمد سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٦م: ٢٧٣/١؛

وأيضاً عماد زهير حافظ: القصص القرآني بين الآباء والأبناء، دار القلم، دمشق، ١٩٩٠م، ص ٢٠٦.

١٠٨- سورة يوسف، الآية: ٩١.

١٠٩- القصص القرآني بين الآباء والأبناء، ص ٢٠٦، فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب، المطبعة البهية

المصرية، القاهرة، ١٩٣٨م: ٢٠٥/١٨؛ ناصر الدين البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الفكر،

بيروت، ١٩٩٦م: ١٤٢/٣؛ وأبو السعود محمد العمادي: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم،

درا[إحياء التراث العربي، بيروت، ٣٠٤/٤.

١١٠- سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

١١١- سفر التكوين، ٥٠: ٢٤-٢٦.



هكذا تنتهي القصة في التوراة بخاتمة مينة فنيًا، ولكن تأمل النهاية والخاتمة الفنية الرائعة في القرآن الكريم إذ يقول يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (١١٢).

هذه الخاتمة المفتوحة الأفق الممتدة بلا انتهاء والمتجددة العطاء والتي لا تزال ترن أصدائها في جنبات النفس وأعماق الوجدان، بكلمات النبي الخالدة الباقية الحية أبداً ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

خاتمة:

من خلال دراستنا لهذا الموضوع لاحظنا أن قصة يوسف الواردة في الرواية الإسرائيلية تحمل في ثناياها بعض أوجه شبه بقصته عليه السلام الواردة في القرآن الكريم، وهذا أمر بديهي؛ لأن الرواية الإسرائيلية في الأصل إنما هي صادرة عن كتب مقدسة وإن حرّفت وبدلت وكتبت بما يتلاءم مع اليهود وعقائدهم ومخططاتهم، ومن ثم ليس صحيحا ما ذهب إليه بعض المستشرقين من أن القرآن الكريم اعتمد في قصصه على التوراة والإنجيل (١١٣). لأن هناك خلافات جوهرية بين القصتين. فالقرآن الكريم وإن اتفق مع بعض الرواية الإسرائيلية في بيان قصة يوسف عليه السلام في شيء قليل، فإنه يختلف معها في أكثر الكثير. ومن هذه الخلافات الجوهرية ما يلي:

- ١- إن القرآن الكريم يضع القصة في إطار ديني تنفذ منه أشعة روحية إلى النفس ببيان العبرة التربوية والأخلاقية، ولكن الرواية الإسرائيلية وضعتها في إطار عائلي، يحمل طابع السرد التاريخي المجرد، دون الإشارة إلى ما وراء الأحداث من عظات وعبر وفوائد.
- ٢- عرض القرآن الكريم القصة عرضا موجزا بليغا وافيا شافيا يدل على روعة النظم القرآني وجماله، ورفع الأسلوب وجلاله، ودقة التعبير وكماله، ودقة لفظه ورقته، ولكننا نجد في الرواية الإسرائيلية ركافة في الأسلوب، وثقلا في التعبير، وتكراراً للألفاظ، واستعمالا للكلمات التي تחדش الحياء، وإغفالا وإهمالا لكثير من الحقائق التي جاء بها القرآن الكريم والتي تعدّ من الركائز الأساسية والمحاور الجوهرية للقصة.

١١٢- سورة يوسف، الآية: ١٠١.

١١٣- جولد تسيهر: العقيدة الشريعة في الإسلام، ترجمة محمد يوسف موسى، القاهرة، ١٩٤٦م، ص ١٢، ١٥.

فمثلاً: أغفلت الرواية الإسرائيلية في بيان قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز كثيراً من الأحداث التي أخبرنا بها القرآن والتي تثبت وتؤكد براءته عليه السلام وعفته وطهارته، فلم يرد فيها ذكرٌ للشاهد الذي أثبت براءته، ولم يرد ذكر لحديث النسوة في المدينة ودعوة امرأة العزيز لهن إلى مأدبة في القصر، وانبهارهن بجمال يوسف حين رأينه، واعتراف المرأة أمامهن وإصرارها على المراودة وتهديدها ليوسف أمامهن، كما لم يرد فيها اعتراف المرأة والنسوة ببراءة يوسف حين طلب فتح سجل القضية قبل أن يخرج من السجن. ومن الأمور المهمة التي أغفلت عن ذكرها الرواية الإسرائيلية دعوة يوسف عليه السلام إلى الله تعالى في السجن. ولا شك أن الدعوة إلى الله هي من الركائز الأساسية في حياة الأنبياء، بل هي أساس دعوة جميع الأنبياء ومحورها.

٣- أن الرواية الإسرائيلية قد ركزت على تفصيلات كثيرة لا طائل من ورائها، ولا جدوى في بيانها، فضلا عن تفاهة وخساسة أكثرها أمام النقد العلمي. ولكننا نجد القرآن الكريم قد ركز على الأمور المهمة النافعة التي تحمل في طياتها عظات بالغة، كما أنه أعرض عن سفاسف الأمور التي لا فائدة من ذكرها.

٤- أن الفضائل العليا مثل: الإخلاص، والصبر، والتوكل، وعفة اللسان، وكبح الشهوات، والعفو عند المقدرة... وغيرها توجد بوضوح في القرآن الكريم دون الروايات الإسرائيلية التي تنعدم منها هذه القيم.

وأخيراً نقول: إن قصة يوسف عليه السلام فيها عظة وعبرة، وهداية ورحمة، وتفصيل وحكمة، وتثبيت للقلوب وتزكية للنفوس، وسمو بالأرواح وزاد للدعاة، وهي مشكاة للمريين والمصلحين، تحفز الهمم، وتوقظ الأمم، وتثير المشاعر والوجدان، وتروّج عن القلوب، بالإضافة إلى أنها حجة ساطعة وآية قاطعة تشهد بصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به عن ربه سبحانه وتعالى.

\* \* \* \*